الألوان ودلالتها في القرآن الكريم

د. سليمان بن علي بن عامر الشعيلي
استاذ مساعد، كلية التربية، جامعة السلطان قابوس
مسقط، سلطنة عمان

الخلاصة

الألوان؛ اختلافها وتناسقها، مظهر من مظاهر الجمال الذي بثه الله في الكون الواسع، وله تأثير عجيب على النفس الإنسانية إيجابا أو سلبا، حتى لقد دخل في علاج بعض الأمراض النفسية.

وحيث إن الجمال أمر ترتاح له النفس، ويتناغم مع الفطرة، كان لابد أن يجد عناية في القرآن الكريم، كتاب الله الخالد، ومعجزة رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام. ويهدف هذا البحث إلى بيان أهمية الألوان في حياة الإنسان، وكيف وظف القرآن الكريم هذا العنصر الجمالي في صور ترتاح لها النفس، كاللون الأخضر أو أخرى للتنفير منها كوصف الكفار بسواد الوجوه.

جاء البحث في تمهيد وأربعة مباحث، الأول عرف اللون، والثاني ذكر أقسام الألوان، وصفاتها، وتحدث الثالث عن تأثير الألوان على النفس الإنسانية، أما الرابع فاستقرأ الآيات التي وردت فيها الألوان وما قيل في تفسيرها، وخلص البحث إلى أن استخدام القرآن الكريم لهذه الألوان جاء منسجما تماما مع ما لها من أثر نفسي على الإنسان؛ سلبا أو إيجابا، فقد استخدم القرآن اللون الأخضر مثلا، وهو لون ترتاح له النفس، استخداما إيجابيا تاما، ثم اللون الأبيض جاء في الدرجة الثانية من الإيجابية، يقابلهما اللون الأسود، وهو لون يثير في النفس الشعور بالكآبة والحزن، لذا كان أكثر استخدامه في الصفات المنفرة. أما بقية الألوان فكان استخدامها بدرجات متفاوتة سلبا أو إيجابا، حسب سياق الآيات وموضوعها الذي تتحدث عنه.

ABSTRACT

Colors are one manifestation of beauty in the universe. Since it has been well documented that humans are positively or negatively influenced by colors, colors are often used in psychotherapy. The Holy Quran devotes a fair amount of attention to colors because of their calming effect on the mind and because they are often in harmony with nature. This paper aims to highlight the importance of colors in human life and how color is employed in the Qur'an.

The paper contains four chapters, the first three of which detail the importance of colors, kinds of colors, and their impact on human life. The fourth chapter explains the different colors mentioned in the Qur'an and how they are interpreted. The paper concludes that Qur'anic references to color may be positive as with green or negative as with black.

تقديـــم:

الحمد لله الذي أنزل على عبده كتابا معجزا، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم عليهم تسليما كثيرا.

وبعد، فإن نعمة الدين هي أجل النعم على الإنسان، وأساس هذه النعمة القرآن الكريم، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وقد تنوعت أساليب هدايته ووجوه إعجازه، وكتب حول ذلك الكثير، لكن يبقى القرآن ثرا معطاءا يتجدد بتجدد الأحوال ولا تنقضي عجائبه.

والجمال –حسيا كان أم معنويا- عنصر أساس يعتمد عليه القرآن الكريم في خطاب النفس الإنسانية والتأثير عليها، ولا شك أن تلك الصور الجمالية التي يعرضها القرآن في سياقات مختلفة تمثل وجها من أهم وجوه إعجازه، فكما يكون الإعجاز في العبارة يكون في رسم الصورة والتعبير عنها. من ذلك حديث القرآن عن الألوان في صور متعددة بعضها حسن وبعضها الآخر غير ذلك.

حديث القرآن عن الألوان موضوع جدير بالدراسة، ولم أجد فيه إلا مقالات متناثرة، وما كتبه الأستاذ نذير حمدان عن اللون والضوء بشكل عام، كما أن لابن حزم الفقيه الظاهري رسالة عن الألوان، لم أعثر عليها. أما كتب التفسير، فلم تعن ببيان صورة الجمال والإعجاز للآيات التي ورد فيها ذكر الألوان، وقصارى ما يذكره المفسرون هو بيان المعنى العام وما يرمز إليه اللون المستخدم في الآية، على أن مثل هذه الآيات تحتاج إلى نظرة أخرى، تظهر جمال الصورة الذي ترسمه الآية، وهو وجه من وجوه الإعجاز، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن التخييل والتجسيم والصور المتقابلة التي يرسمها القرآن الكريم، في كتابه (التصوير الفني للقرآن الكريم)، لكنه لم يذكر شيئا عن الصورة الجمالية التي ترسمها الألوان في الكتاب العزيز، والبحث الذي بين يدي القاريء محاولة للتأمل في الآيات التي تحدثت عن الألوان، وبيان الصورة الجمالية التي يعرضها القرآن، من خلال استخدام الألوان، كل لون في مكانه المناسب، ولعل الصعوبة الأولى التي يواجهها الباحث في مثل هذه الموضوعات، قلة المراجع وكأنه ينحت من صخر، ولذا استميح القارئ عذرا إذا رأى أن من مراجع البحث مقالات منشورة في مجلات، ومواقع على الشبكة الالكترونية، إذ لا مناص من الاستعاضة بمثلها إذا عزت المراجع الأصيلة.

كان لا بد من التمهيد للبحث، بالحديث عن إعجاز القرآن، وتأثيره على النفوس، ودور الصورة الجمالية في هذا التأثير، ثم المبحث الأول في تعريف اللون، والمبحث

الثالث في تقسيم الألوان إلى أساسية وثانوية وصفاتها، أما المبحث الرابع فكان عن تأثير الألوان على النفس، وتحدث المبحث الخامس عن الألوان التي وردت في القران، وأنواعها ثم الخاتمة.

ولا أزعم أن في هذا البحث جديدا، لكنه محاولة لجمع شتات الموضوع، عسى أن يكون نواة لمباحث أخرى، أكثر عمقا وتحليلا، فإن وفقت فمن الله، وأن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله أسأل أن يجنبنا الزلل، إنه ولي ذلك والقادر عليه وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

تمهيد: الإعجاز الجمالي في االقرآن الكريم

نزل القرآن الكريم على قوم كان البيان صناعتهم، ففاجأهم بأسلوب لا عهد لهم به، فحاروا في أمره، فهو وإن تألف من كلماتهم وحروف لغتهم، فإنه جاء بنظم متفرد، يدركون حلاوته، ويحسون بروعته، دون أن يستطيعوا محاكاته. وتحداهم مرارا أن يأتوا بمثله، أو حتى بسورة من مثله فعجزوا. وقد شمل هذا التحدي الخلق أجمعهم، ليس في البيان فحسب، الذي هو صناعة العرب، بل في أوجه أخرى من إعجازه، "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا". الإسراء/ ٨٨. هذا التحدي أفقد القوم توازنهم، ورشدهم، فذهبوا يبحثون عن مخرج يحفظ ماء وجوههم، مع قناعتهم بصدقه، وحكى القرآن عنهم قولهم، "لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين" الأنفال/٣١، وقولهم، "إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون" الفرقان/٤، وقولهم "أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا" الفرقان/٥.

على أن هذا لم يكن منهم إلا مكابرة، وعنادا، وحالهم يخالف ذلك، فقد روى البيهقي في الدلائل أن أبا جهل بن هشام، وأبا سفيان بن حرب، والأخنس بن شريق، كانوا يتواصون ألا يستمعوا لهذا القرآن، ويحذرون الناس أن يميلوا إلى سحره، ولكنهم تحت تأثير جاذب لا يستطيعون مقاومته، كانوا يتسللون متسترين إلى حيث يستمعون، فإذا انصرفوا بعد التلاوة، تلاقوا في الطريق، فأخذوا يتلاومون ويتعاهدون ألا يعودوا؛ كيلا يقتدي بهم الملأ من قريش، وفي الليلة الثالثة اجتمعوا، وتلاقوا مستنكرين، فلما أصبح الصباح، ذهب الأخنس بن شريق إلى أبي سفيان، فقال له: أخبرني أبا حنظلة عما سمعت من محمد. فقال الرجل: لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد منها، فقال الأخنس: وأنا كذلك. ثم انصرف إلى أبي جهل ليسأله عما سأل عنه أبا سفيان،

فقال أبو جهل في غيظ: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع إليه ولا نصدقه".

كان للقرآن تأثير السحر على النفوس، وإلا فما الذي دعا هؤلاء النفر إلى التسلل مستخفين لسماع آياته، ومواعظه وهم أشد القوم عنادا، وانصرافا عن داعي الله، ولئن أنكر عنيد كأبي جهل هذا الأثر، ورام التقليل من شأنه، فإن الشمس لا تغطى بغربال، فهذا الوليد بن المغيرة أعظم القوم رئاسة، وأكثرهم تذوقا لمعاني كلام العرب، أعلن في صراحة قائلا: " والله ما في قريش من رجل أعلم بالشعر، أو رجزه أو قصيده مني، ولا والله ما يشبه الذي يقول محمد شيئا من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته".

هكذا يتحدث الوليد، وهو الفصيح البليغ العالم بكلام العرب، شعرهم ونثرهم، وهكذا يصف القرآن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة...الخ، وهو وصف دقيق، صادر عن خبير عالم، وعن تأثر عميق بآيات القرآن، طغى على نفسه وأنساه كفره، وعناده، فأجرى الله الحق على لسانه.

هذا، وكما تأثر الوليد بآيات القرآن، فقد تأثر رئيس آخر من رؤساء دولة الكفر، وواحد من أساطين هذه اللغة، هو عتبة بن ربيعة، قال مرة لقومه: ألا أقوم لمحمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا عله يقبل بعضها فنعطيه إياها؟ فقالوا: لك ذلك. فذهب إلى رسول الله، وهو يصلي في المسجد، وقال يا ابن أخي: إنك من خيارنا حيث علمت حسبا، ونسبا، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال – عليه الصلاة والسلام- قل يا أبا الوليد. فقال" يا ابن أخي؛ إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، فقرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أول فصلت حتى وصل إلى قوله تعالى: "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما

أرسلتم به كافرون" فصلت/١٣-١٤ عند ذلك أمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، ثم رجع إلى قومه وهو يقول: والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش: أطيعوني فاجعلوها لي، خلوا بين الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم. فقالوا: لقد سحرك محمد. فقال هذا رأيي".

بلغ التأثر بعتبة أقصاه، حتى لقد شعر أن تلك الصاعقة توشك أن تنزل به، فأمسك بيده على في الرسول عليه السلام يناشده الرحم أن يتوقف، ثم عبر عما في نفسه بصراحة فاجأت القوم، وأبدى رأيا عاقلا كان فيه الخير لقريش لو أخذت به.

هكذا هو القرآن يأسر القلوب بجمال نظمه، وروعة معناه، وصدق الله "الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد" (الزمر/٢٣).

ولا شك أن ما يعرضه القرآن من صور جمالية، ومشاهد رائعة، لها أكبر الأثر في هذا التأثر، بيد أن تلك الصور تختلف في عرضها، وموضوعها، حسب الهدف الذي سيقت من أجله، فقد تساق من أجل العظة، والعبرة، أو في سياق الدلالة على عظمة الله، وبديع صنعه، أو غير ذلك.

والجمال القرآني متكامل من حيث الانسجام بين الشكل والمضمون فيه، وهو لا يقدم شكلا فارغا، بل إن ما فيه مسخر في نهاية الأمر لرفع مستوى الوعي الجمالي، ومن ثم لتحقيق الهداية، ومن يقرأ آياته يدرك أن الشكل يحتوي المضمون ويتحد به، بحيث لا ينفصمان، وما الإعجاز البياني إلا الشكل الراقي لدعوة البشر إلى الحق.

يمكن القول إن الجميل في القرآن هو كل ما ترتاح إليه النفس بعد مروره بالحواس، وذلك في الطبيعة والحياة الاجتماعية، وفق ما يقتضي الخير والشر من مظاهر وعلاقات إنسانية، وذلك بالإضافة إلى جمال الأفكار والمشاعر الذي ينسكب في الباطن، ويحدث لذة جمالية معنوية وفق طبيعة النفس الإنسانية كما فطرها الخالق عز وجل.

والجميل في القرآن كل ما يخاطب المشاعر، وما يتصف بمعنى المؤثر في أرقى أشكاله، إن في تصوير ما ترتاح إليه العين والأذن، أو ما ينفر عنه التصوير من خلال

دقة بارعة لتصوير القبيح، كما في رسم مشاهد الكفار، ولذلك نقول: إن الغائية الأخيرة في الجمال القرآني غائية دينية، هي هداية البشر بالترغيب والترهيب، وإن هذه الغائية تعتمد على فنون اللغة بغناها وتبث فيها روح السمو، فالقرآن معجزة بيانية.[١]

وما يهمنا في هذا البحث هو تلك الصور البديعة التي يعرض القرآن فيها جانبا من جمال الخلق والطبيعة، ففي سورة النحل مثلا قوله تعالى:

(خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعملون، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون، وعلامات وبالنجم هم يهتدون، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم). النحل/٣-١٨

"في الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، ومنافع في هذه وفي اللبن واللحم وما إليها، ومنها تأكلون لحما ولبنا وسمنا، وفي حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس، وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء، وعند السرح في الصباح، جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة، رائعة، صحيحة، سمينة، وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة.

وفي الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب، وتلبية لحاسة الجمال في الزينة، لتركبوها وزينة. هذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن، ونظرة الإسلام للحياة. فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام، وشراب وركوب؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية حاسة الجمال، ووجدان الفرح، والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان".[٢]

يعرض القرآن في هذه الآيات لوحات من الجمال الحسي، ويعدها من النعم التي امتن بها على عباده؛ جمال الأنعام حين تسرح وتروح، وأيضا تلك التي لا تروح ولا تسرح، وإنما تستخدم للركوب والنقل، كالخيل والبغال والحمير، فلها جمال وزينة لا يقل عن الأولى في رواحها وسرحها، وجمال الخيل لا يخفى وقد وصفها الله بـ (الصافنات الجياد)، ص/٣١، وب (العاديات)، العاديات/١. ثم تعرض الآيات لوحة فنية أخرى لا تقل جمالا وروعة، صورة الماء النازل من السماء، والأنهار وقد أنبت الله به جنات من نخيل، وأعناب، وزروع، وصورة الثمار المتدلية.... ثم يربط هذا كله بصور أخرى من جمال الكون؛ صورة الشمس والقمر والنجوم، وصورة الفلك تجري بأمر الله في البحار، وصورة الجبال والأنهار.

وفي ثنايا هذه الصور كلها يأتي الامتنان باختلاف الألوان فيما ذكر وما لم يذكر، وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية هذه النعمة وما لها من أثر حسي ومعنوي على النفس الإنسانية، وهي لا تقل بحال عن تلك النعم التي ذكرت معها، وهذا بلا شك جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم.

من هذا المنطلق، سيقتصر حديثنا في الورقات الآتية عن الألوان وكيف وظفها القرآن للتعبير عن المعاني المراد الحديث عنها وفق السياق الذي وردت فيه.

المبحث الأول: تعريف اللون

"اللون صفة الجسد من البياض، والسواد، والحمرة، وغير ذلك،. واللون هيئة كالسواد، والحمرة، ولون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان، والألوان، الضروب، واللون النوع".[٣]

وفي تفسير ابن عاشور[٤] "الألوان جمع لون، وهو عرض أي كيفية تعرض لسطوح الأجسام بكيفية النور كيفيات مختلفة على اختلاف ما يحصل عند انعكاسها إلى عدسات الأعين من شبه الظلمة، وهو لون السواد، وشبه الصبح، وهو لون البياض، فهما الأصلان للألوان"

قال الراغب: الألوان يعبر بها عن الأجناس، والأنواع، يقال فلان يأتي بألوان من الحديث، والطعام.[٥]

وقد ورد في القرآن الكريم بالمعنيين:

ففي قوله تعالى في وصف بقرة بنى إسرائيل "فاقع لونها تسر الناظرين" (البقرة/٦٩). يمكن القول أن اللون هنا يعني الصفة التي تقوم بالجسد من البياض، والسواد وغيرها، ومثل ذلك يقال في قوله تعالى في وصف العسل "يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه" (النحل/٦٩)، وقوله تعالى "ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود" (فاطر/٢٧).

وعلى المعنى الثاني، أي الجنس، أو النوع، جاء قوله تعالى "وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه" (النحل/١٣)، قال الألوسي[٦]: "ألوانه أي أصنافه، قال الراغب: الألوان يعبر بها عن الأصناف والأنواع...". وقوله "فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها" (فاطر/٢٧). ذكر الالوسي أيضا[٧]، أن الألوان هنا تعني أنواعا من التفاح، والرمان، والعنب، والتين،.. ".

ولا شك أن تعدد الأصناف والأنواع يؤدي إلى تعدد ألوانها، فالثمار مثلا تختلف ألوانها باختلاف أصنافها، بيد أن ما يهمنا في هذه الدراسة هو المعنى الأول، وعليه سيكون التركيز في الورقات التالية.

المبحث الثاني: أقسام الألوان وصفاتها

تختلف الألوان فيما بينها نتيجة لاختلافها في مواصفاتها الأساسية وهي:

كنه اللون، (Hue)، وهو الفرق الصريح بينها:

قيمة اللون، (Value)، وهي درجة عتمته أو استضاءته.

شدة اللون، (Intensity)، وهي درجة نقائه ومقدار خلطه مع ألوان أخرى.

يرى الجاحظ: أن الألوان كلها إنما هي من السواد والبياض، والاختلاف على درجة المزاج، قال: "وزعموا أن اللون في الحقيقة إنما هو البياض والسواد، وحكموا في المقالة الأولى بالقوة للسواد على البياض، إذ كانت الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد وبعدت من البياض، فلا تزال كذلك إلى أن تصير سوادا"[٨].

وما قاله الجاحظ هو الذي ذهب إليه علماء التفسير، كالإمام الفخر الرازي[٩]، وابن عاشور[١٠]، وغيرهم، بينما الدارسون لهذا الفن يرون أن ما عده الجاحظ أصل الألوان لا يندرج ضمن الألوان الصافية، لأنها لا لون لها، فالأسود الامتصاص الكامل للألوان أي

انعدامها، والأبيض هو الإنعكاس الكامل للألوان. فالألوان الأساسية الأولية عندهم هي تلك الألوان الصافية التي لا يمكن أن نحصل عليها بمزجها بالألوان الثنائية الأخرى، وجعلوها ثلاثة، الأحمر، والأصفر، والأزرق، وقالوا هي أصل الألوان.

أما الألوان الثانوية أو الثنائية فهي تلك التي يمكن الحصول عليها بمزج لونين أو أكثر من الألوان الأساسية.[١١]

ونظرا للانطباع الذي تتركه هذه الألوان في نفسية الفرد، قسمت الألوان إلى ألوان حارة، وأخرى باردة، ويقال إن هذا الاصطلاح يرجع إلى عهد الفراعنة، الذين قسموا الألوان إلى مجموعتين، إحداهما حارة والأخرى باردة، أما الألوان الحارة فهي الألوان المحصورة في دائرة بين اللون الأحمر الكادميوم[١٢] الذي هو أشد الألوان حرارة، وبين الأصفر المخضر، والألوان الباردة، هي الألوان المحصورة بين الأصفر المخضر، والأحمر الليزارين[١٣]، فالأصفر المخضر إذن هو الحد الفاصل ما بين الألوان الحارة والألوان الباردة.

وتعتبر الألوان الثلاثة: الأصفر والأحمر والبرتقالي والأرجواني ألوانا حارة؛ لأن النار، والشمس، والدم، مصادر الحرارة، والدفء، أما الأزرق، والأخضر، وما قاربهما، فهي ألوان باردة لأن السماء، والماء مصادر البرودة.

يقال أن الألوان الحارة زاهية، وصارخة، تعبر عن النور، والسعادة، والفرح، أما الألوان الباردة فهي هادئة، تعبر عن الحزن، والكآبة، والسكون".[١٤]

وهذا الكلام ليس على إطلاقه، وإنما يعتمد على التأثر النفسي بهذا اللون، أو ذاك، وإلا فمتى كان الأخضر يعبر عن الحزن، والكآبة، وقد ثبت أنه علاج لهما، كما سيأتي في المبحث الآتي.

المبحث الثالث: تأثير الألوان على النفس

اللون قوة موجية جذابة، تؤثر في جهازنا العصبي، وللنفس فرحة لا يستهان بها عند التطلع إليه، إذ يشملها طرب قد لا يختلف عن طرب الموسيقى والغناء، اللون شعر صامت نظمته بلاغة الطبيعة وبيانها، فهو كلامها ولغتها المعبرة عن نفسيتها"[١٥].

يقول اردتشام -أحد علماء النفس-: "إن تأثير اللون في الإنسان بعيد الغور، وقد أجريت تجارب متعددة بينت أن اللون يؤثر في إقدامنا، وإحجامنا، ويشعر بالحرارة، أو البرودة، وبالسرور، أو الكآبة، بل يؤثر في شخصية الرجل، وفي نظرته إلى الحياة"[١٦]

اللون في الحقيقة ما هو إلا طاقة مشعة لها طول موجي، يختلف في تردده، وتذبذبه من لون إلى آخر، وتقوم المستقبلات الضوئية في الشبكية باستقبالها، وترجمتها إلى ألوان، وتحتوي الشبكية على ثلاثة ألوان هي الأخضر، والأحمر، والأزرق، وبقية الألوان تتكون من مزج هذه الثلاثة، وقد اكتشف العلماء أنه عندما تدخل طاقة الضوء إلى الجسم فإنها تنبه الغدة النخامية، والجسم الصنوبري مما يؤدي إلى إفراز هرمونات معينة تحدث مجموعة من العمليات الفسيولوجية، وبالتالي السيطرة المباشرة على تفكيرنا، ومزاجنا وسلوكياتنا.

ونظرا لما للألوان من تأثير مباشر على نفسية الإنسان، ليس على المبصر فحسب، بل على مكفوفي البصر، فقد استخدم الصينيون القدماء العلاج بالألوان فيما يسمى "الفونج شوي"، وذلك بأن يلبس المريض ثوبا من لون معين، أو يجلس في غرفة حوائطها وفرشها من نفس هذا اللون، ويقوم بتركيز نظره لفترة محددة، في الوقت الذي يحصر فيه ذهنه، ويتأمل مكان الألم الذي يعانيه ".

على أن الأذواق لم تتفق في الارتياح إلى لون بعينه، وعدم الارتياح إلى لون آخر، فما اتفق على أنه لون صاخب قوي متعب كالأحمر مثلا، أو لون هادئ مريح كالأخضر، قد لا تراه نفس أخرى بمثل هذه السمات، وبمثل هذا التأثير. ألم يصرح القرآن بصفرة اللهب الشديد لجهنم كأنها قصور، مع أن الصفرة من الألوان المريحة الهادئة. وكذلك ردود الفعل الإنساني من الطمأنينة لألوان والنفور من ألوان.

وعليه فإن الانسجام الواحد بين الألوان قد لا يكون له الأثر الواحد في جميع حالات النفس، فحين تتقبل النفس الألوان قد يحدث فرحا، وحين لا تتقبلها تنقلب إلى حزن وأسى"(١٧).

هذا وقد عرف المصريون القدماء تأثير الألوان على نفسية الإنسان، فاستخدموا اللون الأخضر مثلا في أكفانهم، وفي العقيدة الإسلامية، جاءت دلالات الألوان تعبيرية، أو رمزية، أو حسية، أو جمالية، وارتبط اللون بمصدرين جوهريين: أولهما، النور القادم من السماء المقترن بالخالق الأعلى، وثانيهما، الظلمة المقترنة بقبح الظلم، والطغيان المنافي لجمال العدل، وبذلك، فإن اللون، وجماله، يقترن مع وجود الضياء، ثم يتداخل في المفهوم مع العدل، والقسطاس الإلهي، وأصبح اللون الأسود المظلم لون الحزن، والألوان المشعة دالة على الحبور في الأعراف الشعبية" ١٨.

الأرض كلها ألوان وأضواء، والسموات جميعها ألوان وأضواء، والكون المنظور، والأكوان غير المنظورة، ألوان وأضواء، وكل ما ينشأ من أجرام ويتكون من أجسام ألوان، وأضواء، وعالم الشهادة، وعالم الغيب، ألوان وأضواء".

"إن العالم مترع بالألوان والأضواء، فلا تقدر الأحياء على الحياة من غير ألوان، ولا أضواء، وإن من الكون الذي تحل فيه الألوان، والأضواء، هو كون الإنسان الذي ينعم بهما، ويلذ لهما"[١٩].

هذا وقد امتن الله على خلقة بنعمة اختلاف الألوان في مظاهر كثيرة من المخلوقات، كالزروع والثمار، والشراب، والطبيعة، بل والناس أنفسهم، فقد صبغ الله الخليقة كل بما يناسبه، حتى لكأنها تبدو في معرض من الألوان بديع. ولعل آية فاطر/٢٧-٢٨ تجمع لنا مشاهد مختلفة من ألوان الطبيعة قال تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوان كذلك"

"فألوان الثمار مثلا، معرض بديع للألوان، يعجز عن إبداع جانب منه الرسامون في جميع الأجيال، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر، بل ما من ثمرة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون، وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار، وتنوعها، وتعددها... والجدد، والطرائق، والشعاب، وهنا لفتة في النص صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون، والتظليل، والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود حالكة شديدة السواد، اللفتة إلى ألوان الصخور، وتعددها، وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزا، توقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية، فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة على بعد ما بين طبيعة الصخرة، وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصرا مشتركا بين هذه وتلك، يستحق النظر والالتفات"[٢٠].

ومن جانب آخر، فإن "الأعراق البشرية بألوانها؛ السوداء، والصفراء، والحمراء، والبيضاء، أجمل الألوان من بين مخلوقات الله، حتى وإن نفر البعض من السواد، أو الإحمرار، أو الإصفرار، فالسود صبغهم الله باللون الجميل الذي يناسبهم مثل البيض، فلا فرق في الجمالية بين لون ولون، ما دام التلوين يظهر في صورة جميلة بديعة، وكثيرا ما يكون السواد، وغيره أمتع للنفس من البياض، أو الصفرة، حين تتكون مسحة السواد جمالا، وصبغة الصفرة حسنا وبهاء، أو ليس شعاع القمر، ولون

المسك، أجمل ما في القمر، والمسك، كما قالوا. ومقابلة السواد بالبياض ليس مقابلة القبح بالجمال... إن للسواد مواضع زينة، وقبح، وللبياض مواضع زينة، وقبح.. إذ ليس كل أبيض جميلا، ولا كل أسود قبيحا"[٢١].

وذهب بعض المفسرين كالألوسي[٢٢] وغيره إلى أن تأويل قوله تعالى "وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه" و قوله تعالى "زرع مختلفا ألوانه" "باختلاف الأجناس والأصناف أبلغ من اللون الحقيقي"، ولعلهم نظروا إلى تعدد النعم في أصناف المآكل والثمار، وهذا لا يدفع، لكن من تأمل الأرض وهي لوحة من الجمال في تعدد الألوان، واختلافها، سواء أكان ذلك في النبات، أو الثمار، أو الجبال، أو الحيوان، أو الإنسان، أو أي شيء من مخلوقات الله على هذه الأرض، إن المتأمل في ذلك يدرك أن اختلاف الألوان مراد قطعا من الآيات، إذ إنه يشكل لوحة إعجاز، ومظهر من مظاهر قدرة الله، وعظمته، وبديع صنعه. والهدف من التنويه به، النظر، والتأمل، ليصل بالإنسان إلى خشية الله، وتعظيمه "كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور" فاطر/٢٨.

"والعلماء المشار إليهم في الآية، هم العالمون بهذه الآيات المبثوثة في ثنايا الكون من مظاهر قدرة الله في الخلق، وليس كل العلماء. قال الألوسي" والمراد بالعلماء العالمون بالله عز وجل، وبما يليق به من صفاته الجليلة، وأفعاله الحميدة، وسائر شئونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلا، فمدار الخشية ذلك العلم، لا هذه المعرفة فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى"[٢٣]

"إن ورود الألوان في القرآن الكريم بالجمع أكثر من الإفراد، يمكن أن نلمح منه أن الاقتصار على لون واحد ليس جماليا، ولا متعة، واستشفافا واضحا لقدرة الخالق، فإن طغيان، أو شمول لون واحد في العالم، مثل فقدان كل لون، فلا يقبل هذا، ولا ذاك، إذ إنه ليس من الجمالية في شيء، وأي ملل يمكن أن يحيط بحياة الإنسان حين تبدو الحياة بلون واحد أو بغير لون"[٢٤].

المبحث الرابع: أنواع الألوان الواردة في القرآن

لقد وردت كلمة اللون ومشتقاته تسع مرات في سبع آيات كريمة، ووردت في القران من الألوان الأخضر، والأصفر، والأبيض، والأزرق، والأسود، والأحمر.

ورد اللون الأخضر في ثمان آيات، يرمز فيها إلى سر الروح، والنضارة، والجمال، والشجر، والنبات، والثمر، والطير، والفراش، والبسط، والثوب، وهو أكثر الألوان متعة

في الذكر الحكيم، أما الأصفر فورد ثلاث مرات؛ دالا على مرحلة نضج الثمار مرة، ووصف لمشهد يوم القيامة، والرياح الخانقة مرة، وللتعبير عن البهجة، والسرور، مرة ثالثة. كما ورد اللون الأبيض في تسع آيات كريمة؛ دالا على الهداية، والنقاء، والصفاء، والحب، والخير، والحق، والمشاعر الإنسانية. وورد الأزرق مرة واحدة، والأحمر مرة واحدة في وصف الجبال، والأسود في أربع آيات؛ وصف فيها المجرمون، والكفار، والمنافقون، وجاءت الرابعة تصف توقيت الإمساك عن الطعام في رمضان.

اللون الأبيض

ورد في تسع آيات، في البقرة/١٨٧، آل عمران/١٠٦، ١٠٧، الأعراف/١٠٨، الشعراء/٣٣، يوسف/٨٤، طه/٢٢، النمل/١٢، فاطر/٢٧، الصافات/٤٦.

قال الراغب: "البياض في الألوان ضد السواد، يقال ابيض يبيض ابيضاضا وبياضا، فهو مبيض وأبيض. قال عز وجل: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله" أل عمران/ ١٠٦-١٠٧.... ، ولما كان البياض أفضل لون عندهم كما قيل: البياض أفضل والسواد أهول، والحمرة أجمل، والصفرة أشكل، عبر عن الفضل، والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب: هو أبيض اللون...."[٢٥]

ولما كان اللون الأبيض أفضل الألوان عند العرب. وهو عندهم رمز الطهر والنقاء، يقال أبيض من الثلج، وملازم للفرح والسرور، ومقترن بالسعادة والفوز، جعله الله شعارا لأهل النعيم في قوله تعالى: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه" (آل عمران/١٠٦)

ذكر المفسرون، أنه قد يراد في معناها البياض الحقيقي، أو لازمه من الفرح، والسرور، وكذا يقال في السواد... يوسم أهل الحق ببياض الوجه، وإشراق البشرة، تشريفا لهم، وإظهارا لأثار أعمالهم في ذلك الجمع، ويوسم أهل الباطل بضد ذلك، والظاهر أن الابيضاض والاسوداد يكون لجميع الجسد، إلا إنهما أسندا للوجوه؛ لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه، وهو أشرف أعضائه"[٢٦].

وقد ورد هذا اللون أيضا صفة لنساء الجنة، قال تعالى يصف أزواج أهل الجنة: "وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون" الصافات/٤٨-٤٩.

والحور أصله "وصف مركب من مجموع شدة بياض أبيض العين، وشدة سواد أسودها، وهو من محاسن النساء" [٢٧].

ولعل الأقرب في تفسير الآية، كما قال ابن عاشور: أن "الحور جمع حوراء وهي البيضاء". ويؤيد ذلك وصفهن بـ"البيض المكنون"، إذ البيض –على حد قوله- شديد لمعان اللون وهو أبيض مشوب بياضه بصفرة، وذلك أحسن ألوان النساء".[٢٨]

والعرب تشبه المرأة بالبيضة، لصفائها، وبياضها، ويقال لهن بيضات الخدور، كقول امرئ القيس:

وبيضة خـدر لا يـرام خباؤهـا   تمتعت من لهو بها غير معجل[٢٩]

ويعد البياض عند العرب من محاسن الخلقة عند النساء، وكثيرا ما يذكرونه على أنه برنس الجمال، كما في قول النابغة:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها   لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

وقول ابن أبي ربيعة:

بيـضاء ناصـعة البيـاض   كـدرة الـصدف الكنـين

أما الخمر، فكثيرا ما كان العرب يصفونها بالصفرة، أو الحمرة، واللون الأول هو المفضل عندهم كقول أبي نواس:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجـر مـسته سـراء

على حين نجد القرآن يصف خمر الآخرة بأنها بيضاء (بيضاء لذة للشاربين) الصافات/٤٦.

وهو وصف يعنى نهاية الرقة مع الصفاء، واللطافة النورية التي لها[٣٠]، ولعل ذلك يعود –والله أعلم- إلى أنها لم تعتصر من مادة كما هي الحال في خمر الدنيا، وإنما تنبع من أنهار كالماء الجاري، كما يشي بذلك قوله تعالى في وصفها (من معين) الصافات/٤٥، وهو وصف -كما يقول أبو السعود- للماء، من عان الماء إذا نبع، لأنها تجري في أنهار. وبهذا الصفاء، والرقة تكتمل لذة الشارب.[٣١]

ولما كان اللون الأبيض هو الأقرب إلى لون النور، وصف الله به إحدى معجزات موسى -عليه السلام- وهي اليد، في أكثر من آية، الأعراف ١٠٨، طه ٢٢، الشعراء ٣٣، النمل ١٢، قصص ٣٢، ففي بعضها (ونزع يده فإذا هي بيضاء

للناظرين) الأعراف، ١٠٨، الشعراء ٣٣، و (بيضاء من غير سوء) طه/ ٢٢، النمل/ ١٢. وهذا الاحتراز، كما قال الرازي[٣٢] أنه لما كان البياض كالعيب بين الله تعالى أنه كان من غير سوء.

على أن اللون الأبيض ليس محمودا في كل حال، بل قد يكون مذموما، وغير مستحسن، كما في ابيضاض العيون إذا كان من علة، كما جاء في وصف يعقوب -عليه السلام-، (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) يوسف/ ٨٤، وظاهره تبدل لون سوادهما من المرض، والحزن حتى يؤدي بالإنسان إلى العمى. كما قال الحارث بن حلزة اليشكري:

قبل ما اليوم بيضت بعيون النـ ـــ ـــاس فيهـــا تغــيظ وإبـــاء[٣٣]

اللون الأخضر:

يأتي في الدرجة الثانية بعد الأبيض من حيث وروده في القرآن الكريم، فقد ورد في سبعة مواضع مختلفة، في ثمان آيات هي: الأنعام آية ٩٩، يوسف الآيتان ٤٣، ٤٦، الكهف الآية ٣١، الحج الآية ٦٣، يس الآية ٨٠، الرحمن الآية ٧٦، الإنسان الآية ٢١.

ويعرف الأخضر بأنه اللون الذي يبعث على السرور، والبهجة، وحب الحياة، ويوحي بالجمال، والنماء، والنعيم، لذلك أصبح اللون المفضل في غرف العمليات الجراحية لثياب الجراحين والممرضات.

ويقال إن عمليات الانتحار كانت تكثر على جسر (بلاك فرايار) في لندن، الذي يعرف بجسر الانتحار، حتى تم تغيير لونه الأغبر القاتم إلى اللون الأخضر، فانخفضت تلك الحوادث بشكل ملحوظ.

ومما اكتشفه الصينيون حديثا أن اللون الأخضر يقتل الجراثيم، والبكتيريا، ويسكن الآلام، ويقاوم الإنهاك، والشعور بالتعب، فيشعر صاحبه بأريحية، وسعادة، ويشفي من الأمراض الميكروبية، وبذلك عرفوا السر في استخدام الفراعنة للون الأخضر في مقابرهم لحفظ الموميات من التحلل البكتيري.[٣٤].

واللون الأخضر يريح البصر؛ ذلك أن الساحة البصرية له أصغر من الساحات البصرية لباقي الألوان، كما ان طول موجته وسطي، فليست بالطويلة كاللون الأحمر، وليست بالقصيرة، وله ميزة لا تجدها في غيره من الألوان، فهو يتوافق مع أغلبها فلا يتنافر معها.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الألوان قد تختلف النظرة إليها سلبا أو إيجابا، ومر بنا أن القرآن قد يوظف اللون الواحد في الجانب الإيجابي أحيانا، وفي الجانب السلبي أحيانا أخرى، إلا الأخضر، فإن طاقته إيجابية ١٠٠%، وقادر على امتصاص كل الطاقات السلبية من كل الأجسام الحية، وغير الحية التي تتعرض له، ولذا فإن القرآن لم يوظفه إلا فيما هو مريح في الدنيا والآخرة، مما يشعر أن الحاجة إليه فطرية عامة.[٣٥]

ففي الدنيا مثلا؛ وصف الله النبات النضر المستقبل للحياة بأنه (خضر)، الأنعام/٩٩، وكنى بهذا اللون عن الحياة في قوله تعالى: "هو الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا" يس/٨٠، قيل في تفسيرها: "ليس المراد من الأخضر اللون، وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة، لأن الشجر أخضر اللون ما دام حيا، فإذا جف، وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة، فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت، وحياته. قال ذو الرمة:

ولما تمنت تأكل الـرم لـم تـدع ذوابل مما يجمعون ولا خضرا[٣٦]

والأرض تصبح خضراء عندما ينزل عليها الغيث، فتعمها البهجة، وتعود إليها الحياة، "فتصبح الأرض مخضرة" الحج/٦٣، فبجانب ما يشي به هذا اللون من النضارة، والحياة، فهو ممتع جدا للأبصار، ويدخل على النفس البهجة، والراحة. والتعبير بالمضارع (تصبح) لاستحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة، ولذا فإن من يعانون من القلق، والاكتئاب، ينصحون بالجلوس في الساحات الخضراء، والتأمل في هذا المنظر الجميل الخلاب. يروى في الأثر، أن الخضرة تزيد في ضوء البصر. وقيل ثلاثة مذهبة للحزن الماء والخضرة والوجه الحسن.[٣٧]، ويذكر الجاحظ في كتابه الحيوان[٣٨]، "أن الأكرة[٣٩]، وسكان البساتين، أقل الناس خفشانا[٤٠]، وعميانا، وعمشانا[٤١]، وعورا، وذلك لطول وقوع أبصارهم على الخضرة".

وفي الرؤيا التي قصها الملك على يوسف -عليه السلام-، كانت السنابل الخضر ترمز إلى حياة الدعة، والراحة، والوفرة، والخير الكثير، على عكس اليابسات التي كانت ترمز إلى القحط، والجفاف وشدة العيش.

وفي الآخرة يتجلى جمال هذا اللون في لباس أهل الجنة وفرشهم، "ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق" الكهف/ ٣١، "عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق" الإنسان/٢١، "متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان" الرحمن/ ٧٦، كل ذلك لما يضفيه هذا اللون من بهجة، وسعادة على النفس.

يرى الإمام الرازي[٤٢] أن ذكر الله للأخضر لونا لفرش أهل الجنة، جاء موافقا لميل النفس إليه في الدنيا، ذلك أن الأبيض يفرق البصر، ولهذا لا يقدر الإنسان على إدامة النظر في الأرض عند كونها مستورة بالثلج، وأنه يورث الجهر، والنظر إلى الأشياء السود يجمع البصر، ولهذا كره الإنسان النظر إليه، وإلى الأشياء الحمر كالدم، والأخضر لما اجتمع فيه الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض، وحصل اللون الممتزج من الأشياء التي في بدن الإنسان: وهي الأحمر، والأبيض، والأصفر، والأسود".

اللون الأصفر:

ورد اللون الأصفر في خمسة مواضع في القرآن الكريم: في سورة البقرة آية ٦٩، الروم آية ٥١، الزمر آية ٢١، الحديد آية ٢٠، المرسلات آية ٣٣.

والأصفر هو ثالث الألوان الحارة، بعد الأحمر والبرتقالي، وهو لون التنوير، والحكمة والحماسة، والتفاؤل، والأمل، والمرح، والوضوح، والثقة، يوحي بالقوة، ويدعم الثقة بالنفس، ويفيد الحياة، وعيش اللحظة ذهنيا، يمثل التركيز، والذكاء، ويساعد في الذاكرة.."[٤٣]، وأيضا هو رمز الشمس، والذهب، ويثير في الإنسان انطباعا إيجابيا، وسارا، حتى قيل أن ابن عباس كان يحض على لباس النعال الصفر، وكان يقول: الصفرة تسر النفس"[٤٤]. ومثل ذلك ما رواه الطبرسي عن علي -كرم الله وجهه- أنه كان يرغب في النعال الصفر ويقول: "من لبس نعلا أصفر قل همه"[٤٥]، ومثله عن الصادق أنه قال: "من لبس نعلا صفراء، لم يزل مسرورا حتى يبليها"[٤٦].

وفي هذا السياق ورد ذكره في القرآن الكريم في معرض الحديث عن بقرة بني إسرائيل، وما يشعر به الناظر إليها من غبطة، وبهجة، وسرور، "قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين" البقرة/٦٩.

وليس لون البقرة الأصفر لإدخال البهجة، والسرور على الناظر فحسب، بل هو دليل على صحة البقرة، وسلامتها من العيوب، فقد قررت أصول علم الطب البيطري، أن خير الأبقار وأفضلها، هو ما كان لونها شديد الصفرة في صفاء (فاقع)، وأنه على قدر صفاء اللون، وسلامة الأسنان تكون صحة البقرة".[٤٧]

على أن اللون الأصفر لا يعكس هذا الانطباع على كل حال، فهو كغيره من الألوان، يختلف بحسب الحال التي يوجد عليها، ولذا أسند الفعل تسر إلى ضمير البقرة لا إلى اللون، فلا يقتضي أن اللون الأصفر -كما يقول ابن عاشور[٤٨]- مما يسر

الناظرين دائما". وعلى هذا فإن اصفرار الزرع كما جاء في سورة الزمر/٢١، والحديد/٢٠، يعني أنه فقد الحياة، والنضارة، وذلك مؤذن بيبسه وزواله. " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب" الزمر/٢١. كذلك اصفرار الجسم من الآدمي يشي بعدم الصحة.

وفي سورة المرسلات شبه الله شرر النار بالجمال الصفر، والمقصود من التشبيه هنا العظم، والتتابع، فالشرر يتتابع في حجم البيت من الحجر، فإذا تتابع، ظهر كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك.[٤٩]

وهذا الوصف وإن كان المقصود به شرر النار، لكننا لو غضضنا الطرف عن الموصوف، ونظرنا إلى صورة الإبل الصفر وهي ترعى هنا وهناك، لرأينا أن الصورة لا تخلو من مظهر جمالي، إذ الإبل الصفراء من أجمل الإبل، وأحبها إلى العرب.

اللون الأسود:

ورد اللون الأسود بمشتقاته ٧ مرات في القرآن الكريم؛ مفردا، وجمعا، ومعرفا، ومنكرا، فقد ذكر في سورة آل عمران في الآية ١٠٦ مرتين، وفي البقرة الآية ١٨٧، وفي الآية ٢٧ من سورة فاطر، وفي سورة النحل آية٥٨، في سورة الزمر آية٦٠.

يمتص اللون الأسود كل الألوان الضوئية الواقعة عليه، ولا يعكس منها شيئا، والسواد يمنع البصر من الانتشار، ويقبضه عن الانبساط، ويكفه عن الإدراك، ولذلك جاء اللون مؤكدا في قوله تعالى: (وغرابيب سود) في سورة فاطر آية ٢٧، بعد قوله: (حمر مختلف ألوانها)، فالأسود الغربيب، هو الأسود الحالك السواد، أي أن هذه الأجسام السود تمتص جميع الأشعة الساقطة عليها، ولا تعكس منها شيئا، أي أنها تمتص كل ألوان الطيف الشمسي، ولذلك تظهر معتمة.

واللون الأسود يرمز إلى الحزن عند معظم الشعوب، ويحمل إحساسا بالوحشة، والكآبة، والهم، والغم، واستعمله القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) آل عمران/١٠٦. وفي سورة النحل آية ٥٨، (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) أي يصير متغيرا تغير المغتم، يقال لمن لقي مكروها قد اسود وجهه غما،

وحزنا، قال الرازي: "وقد جعل السواد كناية عن الغم، وذلك لأن الإنسان إذا قوي فرحة انشرح صدره، وانبسط روح قلبه من داخل القلب، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد، وإذا وصل الروح أشرق الوجه وتلألأ واستنار، أما إذا قوي غم الإنسان احتقن الروح في باطن القلب، ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه، وإشراقه، ومن لوازم الغم كمودة الوجه، وغبرته، وسواده"[٥٠].

على أن اللون الأسود لا يعني الكآبة، والحزن، في كل حال، فهو لون الليل الذي ترتاح فيه النفوس، وتلجأ إليه من عناء الكد، والتعب، والإرهاق الذي يصاحبها في النهار، وتسكن فيه بعد يوم مليء بالنشاط، والحركة٥١. وفي سورة الضحى أقسم الله بالضحى والليل وهما أصفى آنين من آونة اليوم وأشف آنين تسري فيهما التأملات، وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود٥٢. وكما أن اللون الأسود لون الهدوء والسكون، فهو كذلك يعبر عن القوة والمرجعية، أو الخضوع لله، فالقساوسة في المسيحية والسادة في المذهب الشيعي والماسترات في الألعاب الشرقية يلبسون اللون الأسود تعبيرا عن المرجعية.[٥٣] وسبق أن ذكرنا أن كثيرا ما يكون السواد وغيره أمتع للنفس من البياض، أو الصفرة، حين تتكون مسحة السواد جمالا وصبغة الصفرة حسنا، وبهاء، أو ليس شعاع القمر، ولون المسك، أجمل ما في القمر والمسك كما قالوا.

الأزرق والأحمر

اللونان الأزرق والأحمر هما أقل الألوان ورودا في القرآن الكريم فقد ورد كل منهما مرة واحدة، في سورة طه "وصف الله المشركين أنهم يحشرون زرقا" قيل أن المراد زرقة الأبدان ولا تزرق إلا للشدة وزوال الرطوبة... وجعلوا زرقا لقبح الزرقة والعرب تبغضها ولذلك قالوا في وصف العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين، قال الشاعر:

وما كنت أخشى أن تكون وفاتـه   بكف سبنتى أزرق العين مطرق[٥٤]

أما الأحمر فقد سبقت الإشارة إليه في سورة فاطر آية ٢٨ في وصف جدد الجبال، قوله تعالى "ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود".

الجدد جمع جدة هو جزء الشيء يخالف لونه لون سائره[55]، وقيل هي الطرائق[56]، والحاصل أن العبارة تصف مظهرا من مظاهر الجمال الحسي وهو اختلاف ألوان الجبال أو حتى الجبل نفسه تختلف ألوان أجزائه بين أبيض وأحمر

وأسود. إلا أن الملاحظ أن الأحمر نفسه ليس على درجة واحدة بل مختلف الدرجات وكأنه نفسه ألوانا كما تشير الآية (وحمر مختلف ألوانها). فهو بهذا التدرج الواسع يضفي على الشكل جمالا ومتعة. وإذا علمنا أن الأصل في تكون معظم الجبال هو ما تقذفه البراكين من حمم وصهارة فلا يبعد أن اللون الأحمر وتدرجه في الجبال له علاقة بأصل تكوينه وهو الحمم البركانية والله أعلم، وأيا كان أصله فإن اللون الأحمر قابل للتدرج في الشدة أكثر من غيره مما يضفي على المنظر جمالا وبهاء وحسنا.

الخلاصة

يمكننا إجمال النتائج التي توصل إليها البحث في النقاط الآتية:

أولا: الجمال نعمة من نعم الله على الإنسان، وبه يتميز خلق الله وبديع صنعه

ثانيا: الألوان عنصر أساس لهذا الجمال الرباني المبثوث في ثنايا الكون.

ثالثا: للألوان تأثير بالغ على النفس الإنسانية سلبا أو أيجابا حتى أمكن استخدامها في علاج بعض الأمراض ا لنفسية.

رابعا: أكثر الألوان ورودا في القرآن الكريم هو اللون الأبيض رمز لنقاء هذا الدين وصفاء هذه الملة وصفاء قلوب أتباعها، ورمز النور الذي جاء به الدين ثم هو رمز الفوز والفلاح لمن استنار بهذا النور ونقى نفسه من أدران الشرك والآثام. ولذا استخدمه القرآن في الجانب الحسن في كل الآيات التي ورد فيها إلا في آية واحدة قوله تعالى "وابيضت عيناه من الحزن" واصفا حال نبي الله يعقوب، ولا تخرج هذه الآية عن الإطار العام لإيجابية هذا اللون.

خامسا: ثبت أن للون الأخضر تأثيرا إيجابيا مريحا للنفس وللبصر، ولذا كثر استخدامه في علاج بعض الأمراض النفسية التي يعاني منها الإنسان كالكآبة والضيق والحزن والإرهاق النفسي، ولعل هذا ما يفسر استخدام القرآن له في وصف الجنة وفرش أهلها وثيابهم وبسطهم، وهو اللون الوحيد الذي استخدمه القرآن بإيجابية تامة ولم يستخدمه في الجانب السلبي أبدا.

سادسا: لم يرد الأزرق إلا مرة واحدة وكان استخدامه بسلبية تامة ١٠٠% في وصف حالة الكفار وهم يحشرون.

سابعا: تراوح استخدام الأصفر بين الإيجاب والسلب في الآيات التي ورد فيها. ويظهر لي أن الجانب الإيجابي هو الأغلب، ذلك أن الجمالة الصفر واصفرار الزرع لا يخلو من جمال في النظر، وإن كان سياق الآيتين سلبيا.

ثامنا: كان استخدام اللون الأسود في الجانب السلبي غالبا للتعبير عن حال الكراهية والكآبة، على عكس الابيض الذي يعبر عن الفرح والبهجة والسرور.

الهوامش

(١) ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، ص: ١٨-١٩

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٤، ص:٢١٦١

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج:٥، ص:٤١٠٦

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص: ٢٢، ١٥٥

(٥) الراغب، المفردات، ص: ٧٥٢

(٦) الألوسي، روح المعاني، ج: ١٤، ص: ١١١

(٧) المرجع نفسه، ج: ٢٢، ص: ١٨٩

(٨) الجاحظ، الحيوان، ج: ٥، ص: ٥٩

(٩) انظر التفسير الكبير، ص: ١١٩

(١٠) التحرير والتنوير، ج: ٢١، ص: ٣٥

(١١) موقع finear4arab

(١٢) معدن الكادميوم ويرمز له بالرمز (cd)، معدن أبيض لين سهل الإنصهار، سريع الذوبان في الأحماض المعدنية، أهم استخداماته في الطلاء الكهربائي، حيث تطلى به الإشياء نظرا لخواصه المقاومة للتآكل والصدأ.. ويستخدم كصبغات خاصة في بعض معاجين الألوان التي تستخدم في الرسم الفني. د. عبدالبديع حمزة زللي، مجلة أهلا وسهلا، مارس ٢٠٠٦.

(١٣) الأحمر الليزارين يذكره اختصاصيوا الألوان أنه أقل الألوان الباردة حرارة فالألوان الباردة تقع بينه وبين الأصفر المخضر، والألوان الحارة تقع بين الأصفر المخضر والأحمر الكادميوم. انظر maxforums.net, egocean.com

(١٤) مليح مراد، الألوان والإنسان، مجلة حراء، العدد الثاني، مارس ٢٠٠٦.

(١٥) نذير حمدان، اللون والضوء في القرآن الكريم، ص:٢٩

(١٦) عبد الحميد دياب، أحمد قرقوز، مع الطب في القرآن، مقال (الإعجاز في الألوان)، منشور في موقع موسوعة الإعجاز في القرآن الكريم (http://www.55a.net).

(١٧) نذير حمدان، ص: ٤٠

(١٨) موقع بلاغ، استعمال اللون في العمارة الإسلامية.

(١٩) نذير حمدان، ص: ١١

(٢٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص: ٥، ٢٩٤

(٢١) نذير حمدان، ص: ٦٦

(٢٢) روح المعاني، ج: ١٤، ص: ١١٠، ج:٢٣، ص: ٢٥٦
(٢٣) الألوسي، روح المعاني، ج:٢٢، ص: ١٩١
(٢٤) نذير حمدان، ص: ٢٧
(٢٥) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص: ١٥٤
(٢٦) الألوسي، روح المعاني، ج:٤، ص: ٢٥
(٢٧) التحرير والتنوير، ج: ٢٧، ص: ٢٥٣
(٢٨) المرجع نفسه، ج: ٢٣، ص: ٣٢
(٢٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:١٥، ص: ٨٠
(٣٠) الطبرسي، مجمع البيان، ج: ٢٣، ص: ٥٧
(٣١) أبو السعود إرشاد العقل السليم، ج:٦، ص: ١٩١
(٣٢) الرازي، مفاتيح الغيب، مجلد ٧، ج١٤، ١٦٠
(٣٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٢، ص: ١٠٨، والبيت من معلقة الحارث بن حلزة اليشكري، آذنتنا ببينها أسماء. الباء في بـ (بعيون) زائدة، أي بيضت عيون الناس، وتبييض العيون كناية عن العمي، يقول: قد أعمت عزتنا قبل يومنا الذي نحن فيه عيون أعدائنا من الناس، يريد أن الناس يحسدوننا على إباء عزتنا على من كادها، وتغيظها على من أرادها بسوء، حتى كأنهم عموا عند نظرهم إلينا لفرط كراهيتهم ذلك وشدة بغضهم إيانا. أنظر، الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، ٢٦٩.
(٣٤) البهواشي، سمير، موقع islamiyat.com
(٣٥) نذير حمدان، ٥٠
(٣٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٢٧٩، البيت لذي الرمة، هكذا ورد في التحرير والتنوير، وفي الرواية المذكورة خطأ والأصح: ولما تنمت..، وتنمى الشيئ تنميا ارتفع، وانتمى البازي والصقر وغيرهما وتنمى ارتفع من مكان إلى آخر. لسان العرب، مادة (نمي)، ج: ٦، ص: ٤٥٥١، و(الرم): في الأصل أصلاح ما فسد بعضه... ورم الحبل تقطع، ورمت الشاة الحشيش ترمه رما: أخذته بشفتيها.. قال ابن شميل الارتمام الأكل، والرمام من البقل حين يبقل، والرم بالكسر الثرى، وقيل اليابس.. وقيل ما على وجه الأرض من فتات الحشيش، والرم: ما في البر من نبات وغيره. لسان العرب، مادة (رمم)، ٣، ص: ١٧٣٦-١٧٣٧. و(الذوابل)، ما ذوى من البقل، قال في اللسان: ذبل البقل ذبلا وذبولا أي ذوي. لسان العرب، مادة (ذبل)، ١٤٨٨/٣.
(٣٧) الألوسي، روح المعاني، ج:١٥، ص: ٢٧١
(٣٨) الحيوان، ج: ٣، ص: ٣٥٣
(٣٩) الأكرة جمع أكار وهو الحراث (اي الذي يحرث الزرع)، ابن منظور، لسان العرب، مادة (أكر)، ج: ١، ص: ١٠٠.
(٤٠) الخفش: ضعف في البصر وضيق في العين، وقيل صغر في العين خلقة. لسان العرب، مادة (خفش)، ج: ٢، ص: ١٢١٠.
(٤١) الأعمش: الفاسد العين الذي تغسق عيناه، ومثله الأرمص، والعمش ألا تزال العين تسيل الدمع ولا يكاد الأعمش يبصر بها، وقيل العمش ضعف رؤية العين مع سيلان دمعها في أكثر أوقاتها. لسان العرب، مادة (عمش)، ج: ٤، ص: ٣١٠٦.

(٤٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ص: ١١٩
(٤٣) صلاح الراشد، مجلة فواصل، عدد ص: ٦، ٢٠٠٥
(٤٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١، ص: ٤٥١
(٤٥) الطبرسي، مجمع البيان، ج: ١، ص: ٣٠٢، وانظر الزمخشري، الكشاف، ج:١، ص: ١٧٨، الألوسي، روح المعاني، ج:١، ص: ٢٨٩، تفسير النسفي، ج: ١، ص: ٥٠
(٤٦) الألوسي، روح المعاني، ج:١، ص: ٢٨٩
(٤٧) مجلة آيات، عدد، ص: ١٢، ٢٠٠٥
(٤٨) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج:١، ص: ٥٣٥
(٤٩) انظر الزمخشري، الكشاف، ج:٦، ص: ١٩٩، سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٦، ص: ٣٧٩٤
(٥٠) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٠، ص: ٤٥
(٥١) من معاني (سجى) في سورة الضحى كما ذكر المفسرون هو السكون، يقال ليلة ساجية أي ساكنة أنظر القرطبيج: ٢٠، ص: ٩١
(٥٢) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٦، ص: ٣٩٢٦
(٥٣) صلاح الراشد، مجلة فواصل، عددج: ٦، ٢٠٠٥
(٥٤) الزمخشري، الكشاف، ج: ٤، ص: ٤٥
(٥٥) ابراهيم انيس، المعجم الوسيط، ج: ١، ص: ١١٠
(٥٦) انظر الألوسي، روح المعاني، ج:٢٢، ص: ١٨٩

المراجع

- الأصفهاني، الراغب، مفرادات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داؤدي، دار القلم، دمشق، ط١، ج:١٤١٢، ص: ١٩٩٢.
- الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ج:١٤٠٥، ص: ١٩٨٥.
- أنيس إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، ط٢.
- الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، (د. ت).
- حمدان نذير، الضوء واللون في القرآن الكريم، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ص: ١٤٢٢، ٢٠٠٢.
- الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ج: ١٤١١، ص: ١٩٩٢.
- مجلة أهلا وسهلا، عدد مارس ٢٠٠٦، موقع http://pr.sv.net/aw/2006/March.
- الزمخشري، تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧.
- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ٢٥، ج: ١٤١٧، ص: ١٩٩٦.
- الطبرسي، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).
- ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ج:١٤٢٠، ص: ٢٠٠٠.
- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥، ص: ١٩٨٥.
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، (د. ت).
- ياسوف، احمد، جمالية المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط١، ص: ١٤١٥، ١٩٩٤.

المجلات

- صلاح الراشد، مقال عن الألوان، مجلة فواصل، عدد، ص: ٦، ٢٠٠٥.
- مجلة آيات، عدد، ص:١٢، ٢٠٠٥.

المواقع الالكترونية

- موقع بلاغ، استعمال ا لألوان في العمارة الإسلامية.
- مجلة أهلا وسهلا، عدد مارس ٢٠٠٦، موقع http://pr.sv.net/aw/2006/March.
- مجلة حراء، العدد الثاني، مارس ٢٠٠٦.
- سمير البهواشي، مقال موقع islamiyat.com.
- موقع Finear4arab.com.